الأنبـــاط

وأطلول بترا الخالدة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٢ —

ديانة الأنباط

لقد كان للأنباط ديانة مستقلة ، لها آلهتها المديدون ، وطقوسها الخاصة . وتدل النقوش والكتابات النبطية المكتشفة على الهياكل والآثار العديدة فى بترا على أن الأنباط كانوا يعبدون الحية وبعض الأجرام السماوية . ففى طريق النبى هارون (الواقع بجوار بترا) لا يزال أثر الحية قائماً حتى اليوم بشكلها المخيف ورأسها المتفرع ، وفى كثير من المعابد والمقابر ، كأم الصناديق والصياغ وقبر الحديقة — وهى من آثار بترا الرائعة — رسوم عدة للثعابين والنجوم وما إليها . وقد وجد على بعض المعابد النبطية ، فى حوران ، تماثيل وأسماء لآلهة كثيرة ، كآموس ، وأثى ، وبعلين ، وفقرة وثيندارتيس اليونانى ، وآلليت . أما أشهر هذه الآلهة فهو الإله (ديشوره[1]) إله الشمس ، وواهب السرور والخصب ؛ وهو عبارة عن حجر صخرى أسود طوله أربعة أقدام ومقعده قدمان ، ولا يزال موجوداً حتى الآن فى مزار النبى هارون ؛ والبدو هناك يحيطونه بكثير من التقديس والاكرام ، ويعتقدون فيه القوة على شفاء بعض الأسقام . ويقدر المسترجون وايتنج ثمن البخور الذى كان يحرق فى بترا فى المراسيم الدينية بعشرة آلاف جنيه فلسطينى ، وهى قيمة وإن كان فى تصديقها مجال كبير للافتراض والشك ، إلا أنها تدل على مقدار تغلغل الروح الدينية بين الأنباط . وذكر المسترج . أدم سمث فى مؤلفه الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة ص ٦٢٨ : أنه قد بلغ من قيمة هذا الإله (ديشوره) أن أقيم له نصبان أحدهما فى روما والآخر فى بوتيولى

(١) راجع: Robinson; Sarcophagus of ow etncient Civilization: P.P. 81. 104 & 232.

سيادة بترا التجارية

تقع بترا بحكم موقعها الجغرافى فى نقطة تجارية عظيمة ، وقد كانت حتى منتصف القرن الأول للميلاد نقطة التوريد والتصدير لمختلف البضائع الشرقية ، ومركزاً لتبادل المتاجر المختلفة التى كانت تمر بها سائرة بين الجزء الجنوبى لجزيرة العرب ، والهند ، ومصر ، وتدمر ، وفلسطين . ولما قدم إليها الأنباط وسكنوها سعوا إلى تحسينها وترقيتها ، فبنوا فيها القلاع والأبراج والمعابد والأسواق ، والمدارج الرائعة ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم دليلاً على نبوغ مجدها ، وسالف عزها ؛ وقد ساعدهم على ذلك ميلهم الفطري لنقل التاجر على قوافلهم ، وقلة المنافسين لهم ، وتفرع طرق تجارية عظيمه بين عاصمتهم وبين سائر الأقطار الأخرى ، فقد ذكر (موزل) فى كتابه الصحراء العربية ص ٥١٥ : أنه كان يوجد طريق معبّد بين تدمر وبطرا ، وأخرى بين بطرا وغزة إلا أن اشتطاط الأنباط فى الأجور الغالية التى كانوا يتقاضونها على النقل ، وكثرة المصارفات التى كانوا يرهقون بها التاجر التى ينقلونها ، قد حدت بالناس إلى التفتيش عن طريق آخر لحمل البضائع الهندية ، فقامت بذلك تدمر وازدهرت حيناً من الزمن حتى عام ٢٧٣م . على حين تقهقرت حالة بترا التجارية الاقتصادية تقهقراً عظيماً . وفى عام ٤٥ م اهتدى هبالوس إلى طريقة الاستفادة من فعل الرياح الموسمية فى تسيير السفن ، فقل بذلك شأن الطرق البرية عامة ، وطريق بترا خاصة ، وقد كان ذلك نهاية لعصر بترا الذهبي

اسماء بترا التاريخية

يغلب على الظن أن أول من دعا بترا بهذا الاسم هم الرومان ؛ وذلك لأنها منحوتة فى الصخر الأصم ، ومعناه باللغة العربية « المدينة الحجرية » . وذكرتها التوراة فى سفر الملوك الاصحاح الرابع عشر ، والعدد السابع باسم (سالع) وفى اللغة العبرية باسم (سلاع) كما ذكرت أيضاً أن أمصيًا ملك يهوذا قد هجم على الآدوميين فى وادى الملح وذبح منهم عشرة آلاف رجل وأنه زحف على سالع (بترا) واحتلها ودعاها « يوقتئيل » . وذكر المؤرخ جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام »

نقلاً عن المقدسى والمقريزى : أن من أسمائها المشهورة عند العرب « الرقيم » . وقد جاء ذكرها أيضاً فى القرآن الشريف فى سورة الكهف . وذكر المستر بارى فى كتابه « التاريخ الرومانى المدرسى » ص ٤٩٧ : أن الامبراطور هادريان قد زار بترا عام ١٢٩ م ، وأنها دعيت بهذا الاسم تخليداً لذكراه ؛ كما ذكر أيضاً أنه أمر بسك نقود جديدة باسم بترا الجديد ، وقد نقش عليها (هادريان متروبولس)

موقعها وطرقها :

تقع بترا فى الشمال الغربى من معان ، وعلى بعد ٢٦٠ كم من عمان عاصمة الامارة الأردنية ، وهى طريق سالكة لسير السيارات فى حين الجفاف وانقطاع الأمطار الغزيرة حتى قرية وادى موسى التى تبعد عن بترا مسافة كيلو مترين ونصف كيلو متر ؛ وهى قرية صغيرة يعتنى أهلها بتربية الدواجن ولا سيما الخيل والبغال والحمير ، التى يستفيدون منها فى موسم السياح ، وفيها نبع ماء غزير يستقى منه أهلها ويستفيدون منه فى زراعة بعض الخضر والحبوب . ويعتقد البدو الضاربون هناك أن النبي موسى قد مر بهذه القرية ابان خروجه من مصر يقود اثنى عشر سبطاً من أسباط بنى اسرائيل ؛ وإذ كان العطش قد اشتد بهم فقد أمر بنحر ما معهم من الابل والنوق ، وبفرى أكراشها وشرب ما فى داخلها من الماء ، ولكن ذلك [1] لم ينقع غلتهم ، فكثر تذمرهم عليه ، وعلا لغطهم ، فركع وصلى لله [2] ، ثم انتصب وضرب بعصاه صخراً أصم كان إلى جانبه فتفجر منه ماء عذب زلال ، ودعى ذلك المكان بعين موسى . والبدو عامة يقدسون هذه العين ، ويعتقدون ان روح النبى موسي تقطن بجوارها وتحوم حولها دائماً وأبداً ، ولذلك أقاموا عليها قبواً صغيراً يلجأون اليه كلما انتابتهم آفة ، أو حز بهم مكروه ، لاعتقادهم أن روح النبى القاطنة حوله تشفيهم من أسقامهم ، وتسهل عليهم مشكلاتهم ومعضلاتهم . وكثيراً ما يحرقون داخل هذا القبو مقادير عظيمة من البخور ، وعرق الند الزكى الأرج ، ويضيئونه بمصابيح نحارية ، وبزيت الزيتون الطيب النقى ، وذلك إجلالاً لروح النبى كليم الله . وقد حدثنى بعضهم أنه فى كل عام ينحر فى هذا المكان ذبيحة أو أكثر ، ضحية عن موتاه ، وتقرباً إلى النبى فى يوم تقوم فيه القيامة وينتصب الميزان . وتبعد هذه العين عن القرية مسافة ميل ونصف تقريباً . وتحيط بوادي موسى الحقول النضرة ، والحدائق الجميلة ، من جميع جهاتها . ومما يزيد فى جمالها الأخاذ انبساط أطلال بترا أمامها ، تلك الاطلال الجميلة التى كأنما فرغ من زخرفتها الدهان بالامس . وأى منظر أبدع وأجمل ، وأكثر رونقاً وبهاء من أن يستقبل الانسان منظر هذه الطلول المبثوثة المنضدة أمام وادى موسى فى اتساق غريب وبديع تحار فيه العقول ! هناك تقع الغزالة بأشعتها الذهبية أول ما تقع على أجمل وأبدع هيكل طبيعى ، ظل قائماً ومحافظاً على استوائه طيلة هذه الأحقاب التى لم تستطع قط أن تنال منه شيئاً . قمم مشمخرة فى الفضاء تنعكس عليها أشعة الشمس صباح مساء ، فترتد فى شكل قوس قزح بل وأبدع منه ، ومن فوقها قبة السماء الصافية الزرقة ، وقد انبسطت تحتها حلة سندسية جميلة من الأعشاب الخضراء تنساب خلالها شعبة من الماء الضحل ، فتظهر فوقها كالحسام الصقيل فوق بساط بديع الوشى والحياكة تجثم فوقه أسراب الطيور البديعة الألوان ، المختلفة الحجوم ، الساحرة التغريد . إن منظر بترا من وادي موسى لمن المرئيات الجميلة التى تتوثب لها أحاسيس الحيوان الاعجم الهامد الشعور ، فكيف بفعلها فى الانسان ذي الخيال المتوثب ، والاحساس المتيقظ ، والشعور المرهف ؟ وإن زورة هذه الأطلال الخالدة لأسنى ذخيرة يقدمها الشاعر إلى خياله ، والأديب إلى أدبه ، والرسام إلى فنه ، والعالم إلى سجله ومذكراته

يخرج السائح من وادى موسى ممتطيا فرساً يقودها دليل بدوي ماهر فى حفظ الأسماء والمسميات ، ذكى يفهم من الاشارة الموجزة ؛ فيشاهد بعد مسير نصف ساعة قبور (بيلون العظيمة) وهى فى طليعة الآثار ، وتتركب من حجر عديدة تزينها الأعمدة الجميلة المحفورة فى الصخر الرملى الجميل ، والمسلات (المصرية الهندسة) الضخمة المدهشة ، تقوم بينها طائفة من التماثيل الفنية التى ما تزال

(١) لا نعتقد بصحة ذلك لأن موسى تخرج من مصر بأسباطه فقط وبدون ابل ، ولأن الطريق التى سلكها ما تزال موضع الحدس والتخمين

(٢) راجع : Petra : by F. Atrash.

على روعتها وجمالها كأنما هي من عمل اليوم ؛ لم تشهد من الزمان احداثاً ، ولا من الأيام عبثاً ودولاً . ومما هو جدير بالذكر والمشاهدة عند زيارة هذه القبور مشاهدة صورة الحية الجميلة الرائعة التي تبلغ ثلاثة عشر متراً طولاً ، والتي يتفرع من عنقها سبعة رؤوس فاغرة الأشداق حتى لكأنما قد رتبت لأزدراد فريسة سائغة . وصورة أخرى تمثل جواداً ، وقد شدّ عليه سرجه وقرط لجامه ، وامتطى صهوته فارسٌ لم تبق الأيام من هيكله الرملي سوى بعض أطراف رأسه المهشم وأصابع قدمه المبتورة

شكل (١) باب السيق وفي آخره المعبد

السيق

ويبعد عن قبور بيلون مسافة ١٥٠ متراً تقريباً ، وهو نفق يخرق جبلين رمليين عظيمين ، كثير المنعطفات والتعاريج ، يبلغ أقصى اتساعه أحد عشر متراً ، وقد يضيق في بعض الأماكن حتى لا يكاد يتجاوز الأربعة أمتار ، وبالرغم من وعورة هذا النفق فان خيول وادي مومي لاعتيادها عليه تسير فيه بكل سهولة . يبلغ طوله ميلاً وبعض الميل ؛ والراجح أنه كان مرصوفاً بالبلاط الرملي الجميل الذي لا يزال مطموراً تحت كثبان الرمال ورواسب المياه المتدفقة ، التي كانت تخترقه مارة من وادي مومي ، حتى تصب في وادي المربة . وحوالي عام ٥٠ ق . م . عند ما بنى الرومانيون معبد إيزيس في نهاية السيق (أنظر شكل ١) حولوا عنه مجرى الماء إلى أقنية نخارية رملية تمتد على جانبي السيق ، على طول كل من الجبلين العظيمين القائم بينهما ، وتوصل هاتان القناتان جبل خيتة بجبل الرملة ، وتوجد على امتداد كل منهما آثار جدران ضخمة متداعية ، كانت تقوم مقام السدود عند اشتداد تدفق الماء ، وعند حدوث الفيضان . ويبلغ علو كل من هذين الجبلين اللذين يخترقهما السيق نحو مائة متر تقريباً ، وينبت في وسطهما في بعض الجهات شجيرات صغيرة من الدقلى والتين البري العاقر ، ومما لا شك فيه أنهما كانا مزينين بطائفة من التماثيل البديعة التي تدل عليها مواضعها المحفورة ، والتي عبثت بها الأيام فيما عبثت من آثار بترا الرائعة . وقد كان مدخل السيق سابقاً مزيناً بالأقواس الرملية الجميلة التي تشبه شكل قوس قزح ، وبالمحاريب الشاهقة الجميلة التي لا تزال آثارها الرائعة تنطق بسالف عظمتها وغابر مجدها بدليل ما اكتشف عليها من النقوش النبطية الكثيرة ...

(يتبع) خليل جمعة الطوال

ترقبوا ...

هكذا أُغنى

المعجزة الجديدة للشاعر المصري

محمود حسن إسماعيل

وقد مُدّ أجل الاشتراكات إلى يوم ١٤ يونيه الجاري تمكيناً للراغبين في اقتناء هذا الديوان أن يحرزوه بثمن مخفض

(أرسل ٧ قروش إلى الشاعر بمجمع اللغة العربية الملكي بمصر تصلك النسخة يوم ١٥ يونيه)